الفونيمات التركيبية وفوق التركيبية، وإيحاءاتها النفسية، سورة يوسف نموذجا

د. بدر بن سالم القطيطي

مقدمة البحث

لا يزال النص القرآني مع اعتكاف الباحثين في محرابه، وكثرة الطالبين المنافع ببابه يستنهض العلماء والراغبين في التزود من معينه الصافي؛ لإدراك جمالية أصواته، ودقائق ألفاظه، وإعجاز تراكيبه، وبيان نظمه، وأسرار نصه، وما هذا العمل إلا صورة لاستنطاق جماله، والكشف عن أوجه بيانه، وأسراره البلاغية من خلال الاعتماد على المنهج النفسي؛ بغية بيان الترابط بين الفونيمات (التركيبية وفوق التركيبية) والألفاظ القرآنية. من هذا الزاوية النفسية التداولية تناولنا بعض الآيات القرآنية؛ لبيان دور الفونيمات التركيبية وفوق التركيبة في كشف جماليات معناها، وإيحاءته النفسية، فصغنا محاور العمل في بابين: يمثل الأول إطار القضية المدروسة نظريا وفيه تأطير القضية في المشاغل اللغوية، والتعريف بالفونيم، وبيان أنواعه، أمَّا الباب الآخر فهو الجانب التطبيقي وقد قصرناه على ثلاثة مشاهد سورة يوسف؛ رغبة في تحديد الدراسة، وهذه المشاهد هي: (مشهد الرؤيا، وجواب يعقوب (ν)، وهو أول مشاهد القصة)، (طلب الإخوة اصطحاب يوسف (ν) معهم، وهو أول حوار بين الإخوة ويعقوب)، (نزول يوسف (ν) قصر العزيز، وحوار العزيز وامرأته، هو أول حوار بعد نزول يوسف (ν) القصر).

تناول البحث القضية من الزاوية البلاغية النفسية بالربط بين دلالة التراكيب وإيحاءاتها النفسية بشيء من التركيز على الآيات المختارة من سورة يسوف، فكان عملنا (الفونيمات التركيبية وفوق التركيبية، وإيحاءاتها النفسية سورة يوسف نموذجا)، الذي يفضي بعد بابيه إلى خاتمة عامة نعرض فيها خلاصة العمل، وأهم المراجع التي أفاد العمل منها، مع ملاحظة أن أرقام الآيات جعلناها قرينة كل آية في البحث، ولم نسجل في الهوامش إلا المراجع التي أفدنا منها.

يبقى العمل بشريا متصفا بالنقص، فقلما يصل عمل إلى الكمال الذي ينشد، فما من عمل إلا وقد يعتريه عيب ما، أو نقص قَلَّ، أو كَثُرَ، ويبقى لمن سبق فضل الابتداء فعليهم اتكأنا، ومن منبعهم ارتوينا، ويبقى لمن تأخر فضل الإكمال والاستدراك. إن أصبنا فمن الله، له الكمال والعزة وحده، وإن جانبنا الصواب، فنسأل الله المغفرة والسلامة.

الباب الأول: إطار الدراسة النظري.

١. ١. تأطير موضوع البحث ضمن المشاغل اللغوية.

تعد الفونيمات (تركيبية كانت أم فوق تركيبية) – في أي لغة – من أهم الوسائل التي توضح المعاني المقامية، وتكشف دلالة الجمل، وتساعد في تفسيرها تفسيرا صحيحا، فهي خاصية أدائية مصاحبة النطق، فلها دور فاعل في تحديد دلالات الكلمات١، وتحويل الإخبار إنشاءً، والعكس، فهي تتخطى في العبارة اللغوية قوتها الإنشائية الحرفية إلى قوتها الاستلزامية الحوارية المتمثلة في الدلالة الإضافية المكتسبة عبر مساق التخاطب، فهي متولدة عن القوة الحرفية طبقا لمقتضيات مقامية تداولية مخصصة تبينها لنا هذه الفونيمات، ولا سيما فوق التركيبية منها.

إن دراسة الفونيمات ومسألة قيمة الصوت الدلالية مسألة مؤصلة في الدرس اللغوي العربي، وإن كانت نشأت هذه الدراسات الصوتية في درسنا اللغوي مختلطة بغيرها من الدراسات اللغوية كالنحو، والصرف، والمعجم، وغيرها؛ لذا فإن المباحث الصوتية قد وجدت في دراسة الأقدمين متناثرة بين مؤلفاتهم، فقد درس اللغويون العرب الصوت منفردا، ومنتظما مع غيره من خلال الظواهر الصوتية المختلفة

.

إن الدرس الصوتي العربي - باعتراف الغربيين٢ - قد سبق المحدثين بنتائج مهمة لا يمكن إغفالها، وقد أثبتت الدراسات اللغوية اهتمام علماء العربية بالدراسة الصوتية، فقد أولوها اهتماما بالغا، فجاء تفكيرهم اللغوي أقرب إلى المنهج العلميّ، ولعل هذا الجهد العلمي الكبير، بدأ بمحاولة أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٥ هـ) في نقط إعراب ألفاظ القرآن بملاحظته الذاتية حركة الشفتين٣، وهذا يدل على معرفة تامة بالجهاز النطقي وأعضائه، فقدَّم الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) أوَّل تصنيف للأصوات حسب موضع النُّطق، أو حسب الأحياز والمخارج، معتمداً على حسه الصوتي، وقد أدَّى به ذلك التصنيف إلى تقسيم الأصوات، إلى ما يُعرف الآن بالصوامت، والصوائت٤.

واصل هذه الجهود سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) الذي توقف عند جهاز النُّطق، وشبَّهه بالنَّاي، وبوتر العود، ليقدّم صورة عن العملية الطبيعية لإنتاج الكلام، وليوضّح تقسيم الأصوات حسب المخارج وتقسيمها إلى أصوات صامتة، وأخرى متحركة. واعتنى أبو علي ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) بعلم الأصوات النطقي، فعالج الأصوات علاجا مختلفا عن علاج من سبقه من اللغويين؛ حيث ألم بالجانب الفيزيائي والفسيولوجي لها. فسجل مصطلحاته الصوتية في رسالته الشهيرة (أسباب حدوث الحروف).

إن المتكلم - أثناء نطقه - يصدر فونيمات تركيبية (الصوامت والصوائت) أصلها أصوات مفردة منعزلة؛ لأن الكلام - في أدائه الصحيح حسب نظام أصوات اللغة المنطوقة وعلى رأي ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) - مكون من سلسلة من الأصوات المتعاقبة المتتابعة التي يأخذ بعضها بحجز بعض في تناسق وترتيب دقيقين حتى ليخال للمتأمل في النشاط الكلامي الإنساني أن وضع حواجز، وحدود واضحة، ودقيقة بين مقطع أو صوت وآخر في النشاط الكلام الأدائي أمر بالغ الصعوبة؛ لأن المتكلم أثناء كلامه يصبغ فونيمات اللغة التركيبية جميعها بألوان لا تحصى من الفونيمات فوق التركيبية التي تشتمل وصل الجمل وفصلها، ونغماتها ونبرها، وهي ظواهر غير واضحة في أبجديتها، ولكنها متصلة ومصاحبة النطق والأداء، فأي إخلال بهذه الطرق الأدائية التي يقتضيها نظام اللغة، أو بعضها، أو اللحن فيها، قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى صعوبة فهم المعنى المراد من الكلام، أو تعذره؛ لتعاضد الفونيمات فوق التركيبية والفونيمات التركيبية في إبراز المعاني وتجليتها، كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (سورة البقرة: ١٠).

يجوز في (الفاء) من (فَزادَهُمُ) أن تكون حرف عطف، والجملة خبرية عطفت على ما تعلق به الخبر، مُتَسَبِّبَةٌ عنها، بمعنى أنَّ سبب الزيادة حصولُ المرضِ في قلوبهم، على هذا القول يكون المفصل الصوتي بعد (مَرَضًا).

أمَّا مَن وقف على (مَرَضٌ) فـ(الفاء) استئنافية، وجملة (زادهم الله) دعائية لا محل لها، فعلى الإخبار تكون الجملة واحدة غير مفصولة، وعلى الإنشاء تكون جملتين، والقراءة على الإنشاء ﴿(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)﴾.

تُشكِّل الفواصل الصوتية عاملا أساسا في توزيع الوظائف النحوية في السلسلة الكلامية، فالعامل الإعرابي والمورفيمات فوق التركيبية تتعاضد في إبراز الدلالة، وتحديد الوظائف، فكلٌّ له مقامه، وتأثيره في تحديد وظائف الكلمة، وبيان دلالتها، حيث يجوز في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥) وجهان:

حالة الوقف	الجملة الأولى	الوقف	الجملة الثانية
بعد (مِنْ رَبِّهِ)	آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ	//	وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
بعد (وَالْمُؤْمِنُونَ)	آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ	//	كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

على هذا التحليل يجوزُ في النص وقفتان يبنى عليهما وظيفة (الْمُؤْمِنُونَ): الأولى بعد (مِنْ رَبِّهِ) فعليه (المؤمنون) مبتدأ، و(كُلٌّ) مبتدأ ثان، و(آمَنَ) خبرٌ عَنْ (كُل) وهذا المبتدأ وخبره خبر الأول، وعلى هذا فلا بُدَّ من رابطٍ بين هذه الجملةِ وبين ما أخبر بها عنه، وهو محذوفٌ تقديرُه: كلٌّ منهم.

أما الوقف بعد (وَالْمُؤْمِنُونَ)، فيرتفع (الْمُؤْمِنُونَ) بالفاعلية؛ عطفاً على (الرسول)، و(كلٌّ آمَن) جملةٌ من مبتدأ وخبر يَدُلُّ على أنَّ جميعَ مَنْ تقدَّم ذكرُه آمَنَ بما ذكر، وعلى القولين خرجها الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، فهو يرى أن "(وَالْمُؤْمِنُونَ) إن عُطِفَ على الرسول كان الضميرُ الذي التنوينُ نائبٌ عنه في (كُلٌّ) راجعاً إلى (الرسول) وَ(الْمُؤْمِنُونَ)؛ أي: كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين ووُقِفَ عليه،

وإن كان مبتدأ كان الضميرُ للمؤمنين"٥.

تؤكد هذه الشواهد، وغيره الكثير – دور الفونيمات التركيبية وفوق التركيبية في إبراز المعاني وتجليتها، حيث تعمل على بيان التعبير، وكشف أسراره، وجلاء مراد المتكلم، وتساعد في توزيع النص الواحد توزيعا تحليليا.

١. ٢. التعريف بالفونيم.

ظهر مصطلح الفونيم في فرنسا في اجتماع الجمعية اللغوية الفرنسية عام ١٨٧٣م٦، ويعد اللغوي بودوان كورتناي (Baudouin Caurtenay) (ت ١٩٢٩ م) من أوائل من استخدم الكلمة (fonema) استخداما فنيا٧، وقد نشر نظريته عن الفونيم في عام (١٨٩٣ م)، فكان أول شخص يتعمق في فحص طبيعة الفونيم، وأول من أعطى المصطلح التحديد الدقيق، فقد كان واعيا بأهمية هذا التصور.

لم يكتسب مصطلح الفونيم (Phoneme) استعمالا واسعا قبل العقد الثاني من القرن العشرين، إلا بعد أن بدأت أفكار دي سوسير (De. Saussure) تحدث أثره؛ ليصبح عمومية لغوية، وقد استعمل دي سوسير الكلمة الفرنسية (phonème)٨، ولكن أول تطور مهم في نظرية الفونيم كان في أعمال مدرسة براغ في العشرينيات والثلاثينيات على يد نيكولاي تروبتسكوي (Nikolai Trubetzkoy) الذي كان أول من دعا إلى تحديد الفونيم " بالوظيفة التي وضع من أجله، وهي التمييز "٩.

طال نقاش الدرس اللغوي حول فكرة الفونيم١٠، مع أن الترجمة العربية له واضحة حيث يقابله في الدرس اللغوي العربي الحرف، أو الوحدة الصوتية، أو العائلة الصوتية١١ إلا أن الصعوبة تكمن عندما نحاول تفسير الأساس الذي تقوم عليه الوحدة الصوتية، فاختلف علماء اللغة المحدثون في كون الفونيم (Phoneme) وحدة لغوية عضوية أو يقوم على أساس نطقي، أو سمعي، أو نفسي؛ فتعددت آراؤهم في ذلك، وتباينت وجهات النظر؛ مما ساق إلى تعدد مدارس الفونيم ونظرياته١٢، فظهرت جملة من الاتجاهات المختلفة التي عرفت بالفونيم١٣، ولعل هذا الاختلاف يعود إلى المنهج المتبع في كل مدرسة، فتعددت أقوالهم١٤.

لعل من أبرز تعريفات الفونيم (Phoneme) ما ذهب إليه تروبتسكوي (Trubetzkoy) من كونه " أصغر وحدة فونولوجية في اللسان المدروس"١٥، فهو يمثل النماذج الصوتية التي لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها، أو الأنماط الصوتية المستقلة التي تميز الحدث الكلامي المعين عن غيره من الأصوات الأخرى".

بهذا التعريف قال أكثر أهل اللغة، يقول ماريو باي (Mario Pei):" إن موضوع علم الفونيمات هو الأصوات أو المجموعات الصوتية المتقاربة التي يدرك علاقتها شعور الجماعة التي تتكلم لغة معينة، والاختيار الموضوعي للفونيمات هو (المغايرة) أو الاختلاف في المعنى الذي يظهر، أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هي"١٦. وقد وضع تروبتسكوي مجموعة من القواعد لبيان وظيفة الفونيم، وهي كالآتي:

١- إذا كان الصوتان من اللغة نفسها، يظهران في الإطار الصوتي نفسه، ويصلح أن يحل أحدهما محل الآخر دون أن يتغير المعنى، فهذان الصوتان صورتان اختياريتان لفونيم واحد، كصوت (الجيم) في كلمة (جمل) ففيها ثلاثة صور (الجيم المعطشة، والجيم غير المعطشة، والجيم الفصيحة)، ومثله صوت (النون).

٢- إذا كان الصوتان من اللغة نفسها، يظهران في الإطار الصوتي نفسه، ولا يصلح أن يحل أحدهما محل الآخر دون أن يتغير المعنى، فهذان الصوتان صورتان مختلفتان للفونيم .

كصوت التاء والعين والشين في (تاب، وعاب، وشاب)، وفي كلمتي (pas – bas) الفرنسيتين، يقول ماريو باي (Mario Pei):" العلم الذي يعالج الخصائص الصوتية الوثيقة الصلة بلغة معينة من وجهة إحساس المتكلمين، . . .، وإذا كان من الممكن أن يشتمل الفونيم على صوت واحد فون (Phone) أو صوت موضوعي، فهو في الكثير الأعم يشتمل على مجموعة من الفونات المتشابهة، أو التنوعات الصوتية (Phonetic Variants) التي يتوقف استعمال كل منها أساسا على موقعه في الكلمة (أولا، وسطا، آخرا)، وعلى الأصوات المجاورة له"١٧.

إن وظيفة الفونيم قد تكون إيجابية، وسلبية، وتتحدد الوظيفة الإيجابية أو الأساس بتحديد مدلول التركيب اللغوي، يساعد الفونيم على التمييز بين الكلمات، وفي هذه تتضح إيجابية الفونيم في عملية الاستبدال الموقعي للتراكيب، أمَّا الوظيفة السلبية أو الثانوية فإنها

تتحدد في حفظ التباين بين هذه التراكيب بعضها عن بعض١٨.

إن الفونيمات أصوات ذات سمات قادرة على التمييز بين الكلمات في كل اللغات، بل هي قادرة على التمييز لا من حيث إبدالها بفونيمات أخرى فحسب بل من حيث ترتيبها وموقعها في البنية اللغوية، ويتضح ذلك في التقابل بين كثير من الكلمات، نحو: (كَتَبَ – كَبَتَ – بَتَكَ). ولم يكن الخليل (ت ١٧٠ هـ) بعيدا عن هذه الفكرة، فتوفر لديه الفهم الصحيح والمنهج الناضج الذي جعله يقترب في كثير من القضايا من المنهج اللساني الحديث، وإن كان في كثير منها قد تقدم عصره١٩، فقد رتَّب مفردات معجمه اللغوي (العين) ترتيبا صوتيا، قائما على فكرة التقليب الصوتي.

١ . ٣. أنواع الفونيم.

تختلف اللغات في عدد فونيماتها، وليست كل الفونيمات موجودة في اللغات جميعها، وإن تشابهت حينا في النطق، كصوت الصاد "يوجد نطقا في اللغة الإنجليزية في مثل (sun شمس) إلا أنه لا يعد من فونيمات اللغة الإنجليزية؛ لأنه لا يستخدم فيها للتفريق بين المعاني، أي: أنه ليس فيها كلمتان، لكل منهما معنى مستقل، وتطابق أصوات إحداهما أصوات الأخرى، إلا أنه يقابل السين في إحداهما الصاد في الأخرى، كما هو الحال في اللغة العربية، في مثل: (سار)، و(صار)، فالسين العربية فونيم، أمَّا صوت الصاد المسموع في الإنجليزية، فهو فرع من فونيم (s)"٢٠.

يُقَسِّم الدرس اللغوي الفونيمات في العربية إلى قسمين رئيسين:

الأول: فونيمات تركيبية (Segmental Phonames).

الآخر: فونيمات فوق التركيبية (Phonames Supra Segmental).

١ . ٣ . ١. فونيمات تركيبية (Segmental Phonames).

تسمى فونيمات تركيبية أو رئيسة أو قطعية، وهي تمثل الوحدة الصوتية التي تكون جزءاً من أبسط صيغة لغوية ذات معنى منعزلة عن السياق، تقوم على تحليل الكلام إلى قطع متميزة، وهي تنقسم إلى: الصوامت (الأصوات الصحيحة)، وهو ما يعرف في الإنجليزية بـ(consonant). والصوائت أو ما يعرف في الإنجليزية بـ(vowel)، وهي في العربية الحركات الثلاث (الفتحة، والضمة، والكسرة) وبتطويلها تصل إلى ستة.

١ . ٣ . ٢. فونيمات فوق التركيبية (Phonames Supra Segmental).

تسمى فونيمات فوق التركيبية أو غير التركيبية٢١، أو الفونيمات ثانوية أو فوق قطعية، وهي ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة، ذات مغزى في الكلام المتصل؛ فهي تصاحب النطق والأداء، فالفونيمات فوق التركيبية أو الثانوية لا تكون جزءاً من تركيب الكلمة، وإنّما تظهر –وتلاحظ فقط– حين تُضمّ كلمة إلى أخرى، أو حين تستعمل الكلمة بصورة خاصة، كأن تستعمل في جملة، ويبحث في النَّبر، الطول، والفواصل الصوتية، والنَّغمات.

من أهم وظائف الفونيمات فوق التركيبة أنه تعمل على إيضاح كثير من معاني اللغة التي لم يسطع المتكلم بيانها، والإفصاح عنها – في أحيان كثيرة – من خلال أنظمة اللغة الأخرى؛ لأن " الكتابة – عبر مسارها الطويل – لم تستطع أن تترجم أحاسيس الإنسان، وعواطفه، وميوله، وتطلعاته، وإن وفقت في جانب، فإنها أخفقت في أخرى"٢٢.

من يدقق النظر في مفهوم الفونيم فوق التركيبي، يجده وسيلة ناجحة في تخطي هذا الفشل، فهذه الفونيمات فوق التركيبية تتعاضد معا؛ لإبراز المعاني، وترجمة الإحساس بصورة أصدق من المكتوب، ويقوى هذا بارتباط هذه الفونيمات، كارتباط المفصل الصوتي بالنبر لبيان المعنى، وارتباط المفصل الصوتي بالتنغيم.

سنقصر الحديث على المقطع الصوتي والتنغيم؛ لكون العربية لا تعتمد النبر (Stress) فونيما تمييزيا كاعتمادها المفصل الصوتي

والتنغيم، ولكن هذا القول لا ينفي وجود النبر في اللغة العربية٢٣، فهو موجود فيها، ولا تكاد تخلو منه لغة، ولكن الفرق بين اللغات في كون النبر ملمحا تمييزيا أو ملمحا غير تمييزي.

١. ٣. ٢. ١. المقطع الصوتي أو المفصل الصوتي.

يصدر المتكلم في حديثه سلسلة من الأصوات المتتابعة المُشَكِّلَة مادة الكلام، أو مظهر اللغة المادي، وتتقاطع هذه الأصوات أو تتتابع وفق نظام معين يهدف إلى دلالة يقصدها المتكلم، ولا تتحقق هذه الدلالة إلا إذا تآلفت الأصوات المنطوقة التي نصورها كتابة بالحروف، وكونت مقاطع. والمقطع "تتابع فونيمي في لغة ما "٢٤ تتكوم منه أبنية نسميها كلمات، ترتبط هي الأخرى في علاقات تركيبية ودلالية نسميها جملا؛ لذا يتطلب نطقها القيام بطائفة من عمليات الانفتاح والانغلاق في جهاز التصويت " إن الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت – سواء أكان الغلق كاملا أم جزئيا – هي التي تمثل المقطع"٢٥.

برز في التعريف بالمقطع الصوتي (syllable) أو المفصل اتجاهان بارزان، هما:٢٦

– الاتجاه الصوتي، ويمثل فيه المقطع الصوتي سكتة خفيفة بين الكلمة أو كلمات في حدث كلامي بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ أو مقطع ما، وبداية آخر، على ضوء التتابعات من الصوامت والصوائت.

– الاتجاه الوظيفي الذي يرى المقطع أنه وحدة ذات صفات، وخصائص متميزة في كل لغة.

إن المقطع الصوتي من حيث بنائه المثالي أكبر من الصوت، وأصغر من الكلمة، فهو أصغر وحدة صوتية إيقاعية للغة ناتجة عن دفعة هواء زفيرية، وهذا يعني أن المقطع هو أقل منطوق تحدث فيه نبضة صدرية واحدة، ويمكن للمثقف اللغوي أن يدرك المقطع ويتعرَّف بحدوده في النطق، وفي ضوء هذا يمكن تقسيم المقطع الصوتي إلى قسمين، هما:

الأول: مفصل مفتوح أو متسع، كالمفصل بين كلمات حدث كلامي معين نحو: هَذَا / كِتَابٌ / زَيد.

الآخر: ضيق أو خفي ويكون بين مقاطع الكلمة الواحدة، وذلك كالمفصل أو السكتة بين: (هَا / ذَا) من هذا.

الكلمة العربية بالنظر إلى توزيع مقاطعها الصوتية تبدأ من مقطع صوتي واحد إلى خمسة مقاطع، وبإضافة الاسم إلى الضمير تغدو سبعة، فإذا تكونت الكلمة من مقطع واحد، أو من فونيمين على الأقل، سميت (أحادية المقطع)، كقولنا: (مِنْ، مَنْ، كَمْ، عن، في)، فالكلمة أحادية المقطع هي المكونة من مقطع صوتي واحد، أمَّا الكلمة المكونة من أكثر من مقطع فيُطلق عليها (متعددة المقاطع الصوتية).

إن تغييب المفصل الصوتي (Juncture) الضيق بين الكلمة، أو المفصل الصوتي المفتوح بين الجملة من الأسباب الجالبة لتعدد التوجيه، وخفاء المراد؛ لذا توقف أهل اللغة طويلا على قول جميل بثينة (ت ٨٢ هـ):٢٧

لَا لَا أَبُـوحُ بِحُـبِّ بَثْنَـةَ إِنَّـهَا أَخَـذَتْ عَلَـيَّ مَـوَاثِقاً وَعُهُوداً

يعد هذا البيت من المشهور في كتب اللغة، حيث أسهم بوضوح غياب المفصل الصوتي وعدم معرفة موضع الفصل في تعدد القراءة والمعنى؛ لأن المفصل الصوتي قرينة صوتية يصبح كاشفا عن البنية العميقة، ومعرفتها تساعد على تحديد المدلول المراد بالجملة، فلو اصطنع النحاة لأنفسهم – في قول جميل– علامة ترقيم لوجد القارئ نقطة؛ للوقف بعد (لا) الأولى، ولأدركوا أنّ (لا) هذه بنفسها تكون جملة مفيدة يستحسن في تنغيمها أن نقف عليها لتمام الفائدة٢٨.

من الواضح أن ثمة فرقاً بين كون (لا) الأولى حرف نفي مؤكداً فيتطلب هذا وصل الكلام، أو يُكَوِّن جملة كاملة الإفادة يستحسن السكوت عليها.

إن معرفة المفصل الصوتي وسيلة مهمة تكشف – لنا – حدود الجمل (phrase Boundaries)، والكلمات (Word Boundaries)، فغيابه أو تغييبه وسيلة جالبةٌ اختلافَ النحاة في توجيه التراكيب، كاختلافهم في بيان وظيفة (رواجع) من قول رؤبة (ت ١٤٥هـ): " يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا رَوَاجِعَا "٢٩، حيث استشهد أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) به على نصب المبتدأ والخبر بـ(ليت) ٣٠، فالكوفيون يحكون: (لَيْتَ زَيْدًا قَائِمًا) على أن (لَيْتَ) هي الناصبة الاسمين جميعا٣١، وهي عند البصريين بخلاف ذلك، فهم لا يرون أنّ (لَيْتَ) تنصب الجزأين، فهي على بابها من نصب الاسم، ورفع الخبر،؛ ويؤوّلون ما ورد من ذلك، فسيبويه (ت ١٨٠ هـ) ينصبه على الحال٣٢، والكسائي (ت

١٨٩هـ) يخرجه خبر لكان المحذوفة٣٣، لا يعنينا تتبع أقوال الإعراب، فالأخذ بالقولين وارد، وسنرجع الفيصل في هذه الأقوال إلى المفصل الصوتي، فيمكن أن نقرأ البيت على النحو الآتي:

صاحب الرأي	حالة الوقف	الجملة الأولى	الوقف	الجملة الأولى	إعراب رَوَاجِعًا
الفراء	بعد (رَوَاجِعًا)	يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا رَوَاجِعًا	//	المعنى تام	خبر ليت
سيبويه	بعد (أَيَّامَ الصِّبَا)	يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا	//	أَقْبَلْنَ رَوَاجِعًا	حال
		يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا لنا	//	رَوَاجِعًا	
الكسائي	بعد (أَيَّامَ الصِّبَا)	يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا	//	كَانَتْ رَوَاجِعًا	خبر كان المحذوفة

إن إغفالَ المتكلم المفصلَ الصوتيَّ علةٌ جالبةٌ توهمَ خلافِ مرادِه، كما جاء في قصة أبي بكر الصديق المشهورة التي تذكرها كتب الأدب والبلاغة، وأشارَ إليها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبين " قال: ومر رجل بأبي بكر – رضي الله تعالى عنه – ومعه ثوب، فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله، فقال أبو بكر: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله"٣٤.

كان البائع يحتاج إلى أحد أمرين لكيلا يوهم كلامه خلاف مراده، إمَّا المفصل الصوتي بين (لا) النافية جملة جوابية، وجملة الدعاء، وإمَّا أن يأتي بـ(الواو) التي تكشف المراد، وهي من محاسن هذا الباب، فاشترط البلاغيون وجودها في باب كمال الانقطاع إن أوهم الفصل خلاف مراد المتكلم، كقولك:

– لا، وأيدك الله. أو تقول: لا / أيدك الله.

– لا، وشفاك الله. أو تقول: لا / شفاك الله.

يلجأ رجالات البلاغة إلى تغييب المفصل الصوتي، وإخفاء الانتقال بين وحدتي التركيب؛ لإحداث الإيقاع اللفظي، والمحسن البديعي (الجناس التام المتشابه)، الموهم في البدْءِ تكرير الألفاظ، لكنّها تفاجئ باختلافِ المعنى، فقد "أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة، ووفاها"٣٥.

إن الجناس المركب (متشابه أو مفروق) هو ما كان أَحَدُ اللَّفْظَين المتشابهين فيه مركّبًا من كلمتين فأكثر مع اتفاقهما في الخطّ"٣٦، أمثلة هذا الضرب كثيرة، مبثوثة في كتب البلاغة، فمن أمثلة من ما تَرَكَّبَ من بنيتين متناظرتين في الفونيمات، ولكنهما مختلفتان في الدلالة، قول أبي الفتح البُسْتي (ت ٤٠٠ هـ):٣٧

عَارِضَاهُ بِمَا جَنَى عَارِضَاهُ أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

تتألف (أَوْ دَعَانِي) من (أو) العطف، نسق بها (دَعَانِي) وهو أمر الاثنين من دع على قوله: (عَارِضَاهُ) الذي في أول البيت٣٨، وقوله: (أودعاني) الذي في القافية فعل ماض من اثنين، وقد استحسن عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)٣٩ هذه المجانسة، واستحسن تجنيس القائل: حتى نَجَا من خَوفِهِ وَمَا نَجا.

من تشابه الفونيمات، واختلاف الدلالة (ذَا / هِبَةْ)، و(ذَاهِبَة)، فـ(ذَاهِبَة) مكونة من ثلاثة مقاطع (بإسكان الهاء)، ففي حالة الفصل بين مقاطع الكلمة (ذَا / هِبة)، ستنطق (ذا / هبة)؛ أي: صاحب هِبَة. والكلمة من غير هذا الفصل (ذَاهِبَة) اسم فاعل من الذّهاب، وهذا ما اعتمد عليه البُسْتي (ت ٤٠٠ هـ) في بيته٤٠؛ لإيجاد فن الجناس.

إن هذا الإخفاق بعدم التمثيل الصادق بين ما هو منطوق من الفونيمات، وما هو مكتوب لا يقتصر على التراكيب المفردة، وإنما تعداه إلى الأساليب التعبيرية الأخرى، يظهر في أمثلة تشترك في أن تغييب المفصل الصوتي بين كلماتها يعمل على تعدد قراءاتها، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة يوسف: ٧٥)ففضل جلاء المعنى هنا للمفصل الصوتي، فهو الوسيلة الكاشفة تعالق الجمل في ما بينها، حيث يعمل في الآية المباركة على توزعها إلى جملتين، لكن تختلف عناصر كل منها، فيكون التوزيع بعد القول على النحو الآتي:

الجملة الأولى: ﴿جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾، والتنغيم هنا إثبات.

الجملة الثانية: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، والتنغيم هنا إثبات.

ويحتمل أن يكون توزيع عناصر الآية الشريفة كالآتي:

الجملة الأولى: ﴿جَزَاؤُهُ﴾؟ والتنغيم تنغيم استفهام.

الجملة الثانية: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، والتنغيم هنا تنغيم إثبات.

يسّوغ تنغيم الاستفهام في (جَزَاؤُهُ)؟ وقوعها بعد قوله تعالى:﴿قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾(سورة يوسف: ٧٤)، والاستفهام فيها واضح بأداته، ولاشكّ أن تنغيم جملة (قَالُواْ جَزَاؤُهُ)، بنغمة الاستفهام، وجملة (مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ)، بنغمة التقرير والإخبار، سيقّرب معنى الآيات الكريمة إلى الأذهان، ويكشف عن مضمونها، وهذا ما وجد في قول نزار قباني (ت ١٩٩٨ م)٤١: حَمَلَ الزُّهُورَ إِلَيَّ كَيفَ أَرَدُّهُ ... وَصِبَايَ مَرْسُومٌ عَلَى شَفَتَيه

حالة الوقف	الجملة الأولى	الوقف	الجملة الثانية
بعد (كَيفَ أَرَدُّهُ)	حَمَلَ الزُّهُورَ إِلَيَّ كَيفَ أَرَدُّهُ	//	وَصِبَايَ مَرْسُومٌ عَلَى شَفَتَيه
بعد (إِلَيَّ)	حَمَلَ الزُّهُورَ إِلَيَّ	//	كَيفَ أَرَدُّهُ وَصِبَايَ مَرْسُومٌ عَلَى شَفَتَيه

إن الوقوف على الاستفهام الإنكاري يجعل علة القبول، ورفض الرد لسببين، حمل الزهور، وتذكر الماضي، فهي عملية تستصحب الماضي مع الحاضر. أما الوقوف بعد (إلي)، يجعل الاستفهام متعلقا بالجملة الاسمية الحالية، وهذا يحصر قبول الطرف الآخر بذكريات الماضي، لا بحمل الزهور. ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾(سورة مريم: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(سورة القصص: ٢٥).

١. ٣. ٢. ٢. التنغيم.

التنغيم أو موسيقى الكلام – على ما يسميه إبراهيم أنيس٤٢ – مصطلح لغوي يقابله في الدرس اللغوي الإنجليزي (Intonation)، وهو من أهم جوانب الدراسة الصوتية خصوصاً واللغوية عموماً، بل من أكثرها خطورة بسبب تعدد النغمات في البيئة اللغوية أو البيئات.

يعد إبراهيم أنيس وتمام حسان من الباحثين المحدثين العرب الذين تنبهوا إلى دور التنغيم في بيان دلالة التراكيب، فقد توسع تمام حسان في بيان التنغيم، وكشف قيمته، وأهميته، فعرف التنغيم بأنه "ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"٤٣، وقال – في موضع آخر – عنه: "هو تغييرات تنتاب صوت المتكلم من صعود وهبوط لبيان مشاعر الفرح، والغضب، والإثبات، والتهكم، والاستهزاء، والاستغراب"٤٤.

لما كان التنغيم من الوسائل التي تعطي معاني مقامية، كان غيابه دافعا لانفتاح الدلالة، وتعدد معنى الرسالة، من أجل هذا اختلف الشرَّاح في معنى قول أبي الطيب المتنبي (ت ٣٥٤ هـ):

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ

هل هو استفهام ؟ أو تعجب ؟ أو غير ذلك، فلو كنا سمعنا المتنبي وهو يلقي هذا البيت لعرفنا مقصده. لذا كان للتنغيم الفضل الكبير في تحديد معاني الجمل العريضة، وإن كان التنغيم لا يمثل جزءاً من التركيب اللغوي في الجملة، إلا أنه حدث طارئ يصاحب التركيب، وتتغير دلالته نتيجة تغيره في السياق اللغوي الجاري فيه، نقل ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) عن سيبويه٤٥ (ت ١٨٠ هـ): "فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: (سِيرَ عَلَيهِ لَيْلٌ)، وهم يريدون: (لَيْلٌ طَوِيلٌ)، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها"٤٦، "وهذا إنّما يفهم عنهم بتطويل (الياء)، فيقولون: (سِيرَ عَلَيهِ لَيْلٌ)، فقامت المدّة مقام الصفة"٤٧.

يظهر ارتباط الفونيمات الثانوية بالمعنى في مدحك إنسانا، فتقول:" كان والله رجلا ! فتزيد في قوة اللفظ بـ(الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها (وعليها)؛ أي: رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا ! وتمكن الصوت بإنسان، وتفخمه؛ فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا، أو جوادا، أو نحو ذلك"٤٨.

يحرك التنغيم هذه المعاني يأتي بها إخبارا أو إنشاء، وقد تنبّه سيبويه (ت ١٨٠ هـ) إلى دور التنغيم في المعنى، لكنّه لم يذكره، بالمصطلح، فقد أشار إلى أن ثمّة جملاً خبرية يراد بها معنى الجملة الإنشائية، من ذلك ما ذهب إليه، في (باب الأمر والنّهي)، بقوله: زيداً قطع الله يده، وزيداً أمر الله عليه العيش، لأن معناه معنى، زيداً ليقطع الله يده٤٩.

ممّا جاء خبراً وفيه معنى الأمر ما نقله في (باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر والنهي، لأنّ فيها معنى الأمر والنهي) يقول: ومثل ذلك: (اتّقى الله امرؤ، وفعل خيراً يثب عليه)، لأنّ فيه معنى: ليتقِ الله امرؤ، وليفعلْ خيراً٥٠.

قد يحذف حرف النداء في الأساليب العربية كثير، ويعمد إلى تنغيم النداء إلى بيانه، وتجليته، كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٩)، فقد حذف من هذا النص حرف النداء، واستبدل به تنغيم النداء الذي يصبغ الجملة في سورة يوسف قدرة تعبيرية مثلى تتشكل من النغمية وانفتاح المقاطع الصوتية المحملة بالشحنة الشعورية والانفعالية، ونغمة المقاطع التي تليه أضعف من الأولى، ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

إن نغمة النداء التعبيرية أعلى من نغمة التعبيرية الثانية؛ لانكسار نفسه بفراق يوسف، فالتنغيم هو الذي فرق في آية يوسف بين معاني الندبة والنداء، حيث يصح أن يكون نداء بأعلى الصوت على المجاز، مثله: (يا ويلتا)؛ فالأسف لا يتأتّى منها الإقبال، فقد نزل الأسف منزلة من يعقل، فالأسف شدة الحزن على ما فات، وكأنه نادى الأسف، مبالغة وقالوا: إن كان لك وقتٌ فهذا أوان حضورك، وحذف الهاء التي للسكت، التي هي في الندبة علامة المبالغة في الحزن تجلداً، والمقصود التنبيه على أن المنادي ترك ما أحوجه تركه إلى نداء هذه الأشياء.

يجوز – بالنغمة الحزينة التي اكتنفت يعقوب (ﷺ) – أن تكون (يا) للندبة، والتوجع، والتفجع؛ لتعذر النداء على الأسف، والأول هو المعول عليه، والذي نقول به.

إن مجيء كلمة (أَسَفَى) مناسبة في مكانها، لا يغني عنها غيرها؛ لما فيها من التجانس البديعي بين (أَسَفَى – يُوسُفَ)، "والتجانسُ بين لفظَتَي الأسف ويوسف ممَّا يقع مطبوعاً غيرَ مُتَعَمَّل فَيَمْلُح ويَبْدُع"٥١، وقد أضاف الأسف – وهو أشدّ الحزن – إلى ضمير نفسه؛ لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف، وتلحظ مشاعر الحسرة في ارتكاز النبر على صوت الهمزة الحلقي الذي يحتاج إلى ضغط على مخرجه عند خروج الهواء، وكأنه ينقل شحنة نفسية داخلية مملوءة بالحزن والأسى، ليرسم لك صورة تتمثل أمامك تتمثل في خروج شحنة من القلب يستسلم لها، فناسبت هذه الصورة النداء قبلها، والأصوات المفتوحة بعد الهمزة، فالسين والفاء المفتوحتان أصوات مهموسة ضعيفة، والفتحة أضعف الحركات فناسب كل هذا المشاعر الداخلية، لتجري في المقطع الممدود بالفتحة الطويلة.

إن الرزء الأحدث أشدّ على النفس وأظهر أثراً، فالتأسف على يوسف (ﷺ) دون غيره، لهو دليل على تمادي أسفه على يوسف (ﷺ)، فكل رُزْءٍ بعده يذكره رُزْءَهُ، فلم يقع رزء عند يعقوب (ﷺ) موقع رز يوسف، وأنّ الرزء فيه – مع تقادم عهده – غضاً طريا، ولعل كونَ الرزءَ في يوسفَ (ﷺ) قاعدةَ مصيباته، وأولَهَا فناسبت هذه القاعدة النفسية صوت الهمزة من كلمة (أَسَفَى) الذي يعد أول الأصوات خروجا " وإنما ذكر القرآن تحسره على يوسف، ولم يذكر تحسره على ابنيه الآخرين لأن ذلك التحسر هو الذي يتعلق بهذه القصة فلا يقتضي ذكره أن يعقوب (ﷺ) لم يتحسر قط إلا على يوسف، مع أن الواو لا تفيد ترتيب الجمل المعطوفة بها"٥٢.

إن اختيار لفظة (الأسف) للدلالة على الحزن دون غيرها تتناسب وجو الآية العام المبني على التعجب وغرابة القصة وقسوة الحداث، كاختيار القرآن لفظة (كظيم) المبنية على صيغة (فعيل) وهي مبالغة للكاظم؛ أي: كاظم للحزن لا يظهره بين الناس، ويبكي في خلوته، أو هو فعيل بمعنى مفعول، أي محزون كقوله: وهو مكظوم ممتلىء من الحزن، ممسك عليه لا يبثه إلى غير الله، فالكظم الإمساك النفساني.

إن الإخبار عنه بالجملة الاسمية (هو كظيم) دلالة على ثبوت حالة، واتصافه بالخبر، ومجيء المسند إليه ضميرا غائبا يتناسب من افتتاح الآية بالفعل (تولى) الحاصل عقب المحاورة. فالتولي انصرف غضب، فلا يكون حاضرا. وجملة (هو كظيم) استعارة التصريحية، فقد شبه امتلاء قلبه بالحزن على يوسف (( ) بامتلاء القربة بالماء، وشبهه في صبره وتركه الشكوى إلى غير الله، برابط ربط على فم القربة المليء بالماء حتى لا يخرج منها شيء وهذا هو معنى الكظم.

إن جو الآية المشحون بغرابة الأحدث جعل الإخوة يختارون أغرب الألفاظ كاختيار (التاء) من بين حروف القسم، وهي أغرب حروف القسم؛ لما فيها من" زيادة معنى وهو التعجب"٥٣، فالمقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع؛ لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه، ومن ثم

قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم. فجملة قالوا: تالله ، محاورة بنيه إياه، عندما سمعوا قوله: يا أسفى على يوسف، وقد قالها في خلوته فسمعوها.

اختار الإخوة الفعل (تفتأ) من بين الأفعال الناقصة، وهو أغربها، و(حَرَضًا) بصيغة المصدر من بين الصيغ الزمانية والحرض، شدة المرض المشفي على الهلاك، وهو وصف بالمصدر يستوي فيه الجنس، والعدد.

الباب الثاني: إيحاءات الفونيمات (التركيبية وفوق التركيبية) النفسية.

٢. ١. توطئة.

تقوم هذه الدراسة على كشف شيء من الأوجه البلاغية، والأسرار النفسية في قصة يوسف، من خلال المنهج التحليلي، لبيان ترابط الدراسات اللغوية والمناهج النفسية، فنظم التركيب القرآني جاء مقتضيا آثارَ المعاني، وتُرتّبُها على حسبِ ترتيبِ المعاني في النَّفس، ومراد المتكلم، حتّى يكونَ لوضع كلّ حيث وَضع علّة تَقْتضي كونَه هناك، وحتى لو وُضعَ في مكانِ غيرِه لم يَصحَّ٥٤، فهي ترجمان نفسية المتكلم، وكاشفة دلالته النفسية، " وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت، بما يخرجه فيه مدا، أو علة، أو لينا، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه، وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصواتها"٥٥.

إن من يتأمل ألفاظ القرآن يجدها هي عين ما نتحدث به، ولكن البون بينهما شاسع، فألفاظ القرآن لمَّا حل فيها السر الإلهي أصبحت معجزة، فيها من السمو والرفعة، والفخامة، ما لا تلحظه في أحاديثنا. وليس سمو الألفاظ، ورفعتها من ناحية الخامة التي تُكوِّن الجمل فحسب، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق سبحانه فلا بد أن يكون كلامه مُعجزاً؛ وإن كان مُكوَّناً من الحروف نفسها التي نستخدم نحن البشر، فنظم القرآن "مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء، ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها"٥٦.

إن واضع اللُّغة – على حد قول الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) – كان قد قال: (رَبَضَ) مكان (ضرَبَ) لما كَانَ في ذلك ما يؤدي إلى فساد، فالفائدةُ في معرفة هذا الفرقِ أنَّك إذا عرفتَه عرفتَ "أنّ ليس الغرضُ بنظمِ الكلمِ أن توالَتْ ألفاظُها في النُّطق بل أن تناسَقتْ دلالتُها وتلاقتْ مَعانيها على الوجهِ الذي اقتضاهُ العقلُ"٥٧.

لَمَّا كان النظم توخي معاني النحو، ووضع الكلم موضع ما يقتضيه قانون هذا العلم، وسننه، امتازَ نظم القرآن عن غيره، وعلا تعبيره على كل تعبير، فجاء نظمه مصمما تصميما تاما، مُعَبِّرًا عن كُنْه ما في قلب المتكلم، ومراده، وهذا المعنى ما أكده اللغويون بعد نظرية الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، يقول الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ): "تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل"٥٨.

إن سر جمالية النظم في تأليفه وفقا لأبواب النحو المختلفة؛ وبيان ذلك أننا حين ننطق بالتركيب نرتب ألفاظه ترتيبا متناسبا مع مراد النفس، و"الاختلاف في المعنى المراد التعبير عنه، لا بد أن يؤدي إلى الاختلاف في النظم، فالنظم عملية فكرية لا بد له من عمليتين: أولا: ترتيب المعاني في النفس، وثانيا: ترتيب الألفاظ في النطق"٥٩.

يتنازع عملية الحديث قطبان مهمان، هما: المعنى المُرَاد التحدث عنه، واللفظ المُعَبِّر عن هذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، لزم ذلك اختلاف اللفظ، أو اختلاف ترتيب الألفاظ في التركيب، فجوهر الكلام حالة نفسية، وما ننطقه تصوير ما في النفس من معنى، وانعكاس لهذه الحالة النفسية، أو هو ظل لهذا الكلام النفسي، وهذا ما استهدفه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) من نظريته، وستلمح – بعد توفيق الله تعالى – شيئا من هذه الأسرار في تركيب ما سنقدمه من نماذج في هذا المبحث من آي مبارك من سورة يوسف، وقد اخترنا من أحداث هذه القصة ثلاثة مشاهد، هي على التوالي:

أولا: مشهد الرؤيا، وجواب يعقوب ( ).

ثانيا: طلب الإخوة من يعقوب ( ) اصطحاب يوسف ( ) معهم.

ثالثا: مشهد نزول يوسف (ﷺ) قصر العزيز، وحوار العزيز وامرأته.

٢ . ٢ . مشهد الرؤيا، وجواب يعقوب (ﷺ).

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة يوسف: ٤ - ٥).

إن تقدم (لي) على متعلقه (سَاجِدِينَ)؛ لإظهار دلالة الاختصاص بالمقدم، وهو يوسف (ﷺ) المعنى بالرؤيا أصلا، والمعنى أن الكواكب الأحد عشر، والشمس والقمر سجدت ليوسف (ﷺ) وحده، دون غيره، كما أن تقديم المتعلق فيه رعاية الفاصل القرآنية، وهو المحافظة على نهاية الآي، المختومة بصوت النون.

إنَّ وضع المفصل الصوتي بعد (كَوْكَبًا)، لا يحقق المعنى المراد، ولا يكشف بيان معنى الآية؛ إذ يتوهم المتلقي أن الرؤية كانت لأحد عشر كوكبا، وكان السجود للشمس والقمر دون الكواكب، وهذا غير مراد، بل المراد أن يشمل السجود الكواكب والشمس والقمر جميعها، وعلى هذا القول فالمفصل الصوتي يكون بعد كلمة (وَالْقَمَرَ).

إن هذا المفصل يجعل الواو في (وَالشَّمْسَ) واو النسق جاءت للمغايرة، فهما جاءا زيادةً على الأحدَ عشرَ، - وهذا الأولى - من كونها للمعية، أو كونها من عطفة من باب ذِكر الخاص بعد العام تفصيلاً؛ لأن الشمسُ والقمر دخلا في قوله ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ كدخول (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) في عموم الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٩٨).

يظهر الوقف على كلمة (القمر) جمالية ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وأن الفعل كُرِّرَ للتوكيد لمَّا طال الفصلُ بالمفاعيل، كما كُررت (أنكم) في ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾(سورة المؤمنون: ٣٥)؛ إلا أننا لا نرى في إعادة (رأيتهم) تكريرا توكيد، بل هي جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، فكأنه سئل كيف رأيتهم ؟ فالجواب: رأيتهم ساجدين، فإعادة الفعل دلالة تنوع الرؤيا الواقعة مرتين، فقد اختلفت في كل مرة، رآهم في السماء على حقيقتهم، ثم رآهم له ساجدين" وهذا أظهرُ لأنه متى دار الكلامُ بين الحَمْل على التأكيد أو التأسيس فَحَمْلُه على الثاني أولى"٦٠.

رفض الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) التكرار، فهو يرى أن الإعادة لشبه كمال الاتصال،"ما معنى تكرار (رأيتُهم)؟ قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلامٌ مستأنفٌ على تقديرِ سؤالٍ وقع جواباً له، كأنَّ يعقوبَ عليه السلام قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر﴾ كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: رأيتهم لي ساجدين"٦١.

بعد أن سَمِعَ يعقوب (ﷺ) رؤيا يوسف (ﷺ) عَلِمَ الخير فيها، ولكن هذا الخير سيكون دافعا لحسد الإخوة. فبحنان الأبوة يناديه مع حضور المخاطب؛ ليستحضر ذهنه، وينبهه - اهتماما - بالغرض المخاطب، فيقول يعقوب: (يا بني)، فالتصغير للإشفاق والتحبيب، لا تقصص رؤياك على إخوتك، ويعقوب بحسه التربوي لم يترك الأمر غامضا، بل فَسَّرَ علة طلبه بأن الإخوة سيشتد بهم الغيرة إلى حد الحسد؛ فيكيدون له بتحريك من الشيطان، فالفعل (يكيدوا) منصوبٌ في جواب النهي وهو في تقدير شرط وجزاء.نكرت (كَيْدًا) في هذا السياق دلالة على عظم المكر الذي سيلحق بيوسف (ﷺ)،وتنوين كيدا للتعظيم والتهويل؛ زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم، وقُدِّمَ شبه الجملة (لك) على المصدر المؤكد فعله، دلالة على أن هذا التدبير الخفي وبمعونة الشيطان سيكون ليوسف دون غيره إخيه مثلا، لهذا وصف يعقوب (ﷺ) الشيطان بأنه عدو مبين بالتنكير للدلالة على التعظيم والتعميم. إن يعقوب علم عقلية يوسف مع صغر سنه، فتعامل معه بعظم سنة، وعلو نفسه فقول "يعقوب (ﷺ) هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحا، عاذرا، معرضا عن الزلات، عالما بأثر الصبر في رفعة الشأن"٦٢.

٢ . ٣. طلب الإخوة من يعقوب (ﷺ) اصطحاب يوسف (ﷺ) معهم.

قال الحق وهو أصدق القائلين: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)﴾(سورة يوسف: ١١ - ١٤).

تمثل هذه الآيات طلب الإخوة الصريح من يعقوب (ﷺ) أن يسمح لهم باصطحاب يوسف (ﷺ) معهم إلى الصحراء ليلعب، ويرتع، فبعد سؤالهم المحمَّل بالعتب والاستنكار الخفي، أجروا جملهم على الخبرية (إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)، و(إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) المؤكدة بـ(إِنَّ واللام المزحلقة).

اختاروا الفعل (أرسله) دون أطلقه، مع أنهم في دواخلهم النفسية يرون يوسف وكأنه مقيد، ولكن هذه اللفظة هي المناسبة لحالتهم النفسية التي يريدون أن يصلوا إليها، فالرسول لا بد أن يتصف بالإمانة، ورجاحة العقل، والقوة ليحفظ ما أرسل معه، وزيادة في التوكيد، واستمالة لنفس يوسف (ﷺ)؛ جاءوا من الألفاظ بـ(اللعب والرتع) بما يناسب طفولته، وتصويراً لما ينتظره (ﷺ) من النشاط والمسرة والرياضة، ومما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون.

لذا جاء جواب يعقوب رداً على العتاب الاستنكاري الأول ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾، فجعل يعقوب ينفي بطريق غير مباشر أنه لا يأمنهم عليه، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه، لذا تلاحظ في الآيات هذه الصراعات النفسية باستخدام موكدات الجمل.

إن هذا الزخم من المؤكدات فقد استدعاه المقام، فهو يعكس حالتهم النفسية، لأنهم على يقين أن أباهم منكرٌ صدق نواياهم تجاه يوسف (ﷺ)، ولزيادة الثقة، وإدخال الاطمئنان على يعقول قدموا متعلق الخبر شبه الجملة عليه؛ لاختصاص، فقالوا: (إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، و(إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

بدأ الإخوة حديثهم واستمالتهم بالنصح على الحفظ؛ لأن النصح لا يكون إلا من عاقل، بينما الحفظ يكون من القوي، فلا يشترط مع القوة العقل فقد يبطش، ولكن العاقل ناصح محافظ، وما هذا إلا مراعاة لحالة المقام النفسية، ليستميلوا قلب يعقوب فيوافق على مرادهم.
فقد تتنازع هذه المشهد قوتان نفسيتان:
الأولى: نفسية الإخوة المبنية على الحسد، والرغبة في التخلص من يوسف.
الأخرى: نفسية يعقوب المبنية على حب يوسف، والرغبة في بقائه، والحفاظ عليه.

من أجل هذا خاطب الأبناء أباهم بالخبر الإنكاري المؤكد بأكثر من مؤكد، فجاء رده مساويا طلبهم، مُؤكَّدا بـ(إِنَّ واللام المزحلقة)، قال: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ) قطعا لإلحاحهم واستخدم الحزن لشيء لم يقع بعدُ، مع أنه لا يستخدم إلا في مقام ما مضى وتحقق؛ بينما الخوف للمستقبل وفي هذا دليل على أن الأمر قائم على كشف النية، ومعرفة سر الإلحاح، فيعقوب مدرك تحقق الفراق بينه وبين يوسف، ومتثبت من قولهم، لذالم يأت يعقوب في جملة الحال بمؤكد فقال: (وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)؛ لأنه لا يشك في ذلك، وتلحظ أنه قدم شبه الجملة على متعلقها؛ دلالة على أن غفلتهم عن يوسف مقصودة، فهذه الغفلة تكون عن يوسف دون غيره من شؤون الحياة.

بدأ يعقوب (ﷺ) مبررا رفض طلبهم بالحزن، والخوف، ولكن نفسية الأبناء كانت نفسية مريضة ملأها الحسد، فلم يلتفتوا إلى حزن الأب، وصرفوا جهدهم في إزالة خوفه فأكدوا جملته (باللام الموطئة للقسم المحذوف، وإنَّ واللام المزحلقة، وإذا الجوابية)؛ لتحقيق لحصول خسرانهم إن حصل الشرط، وفيه مبالغة على حرصهم على يوسف، ومبالغة في الحفاظ عليه، لذا اعتدوا بقوتهم، فقالوا: (ونحن عصبة)، فمالوا إلى قوتهم، وهذه القوة هي نفسها الدافعة إلى حسد يوسف وأخيه، فكيف ليعقوب أن يقدم يوسف وأخاه عليهم وهم عصبة يخدمون، ويحافظون على المال.

٢. ٣. مشهد نزول يوسف (ﷺ) قصر العزيز، وحوار العزيز وامرأته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(سورة يوسف: ٢١).

حددت هذه الآية مكان الأحدث، وهو (مصر)، وعبرت عن المشتري باسم الموصول وهو مدير الحوار وطرفه الأول، وقد أسند الفعل

إليه حقيقة لبيان ما قاله، ولأن الأحداث ستبنى على قوله، وعبر القرآن عن زوجته بلفظة (امرأة)؛ إشارة إلى النقص الحاصل في العلاقة بينهما، فلفظة امرأة في القرآن الكريم لا تستخدم إلا في المقامات التي لا تكتمل فيها عناصر الزواج. وتوجيه الخطاب إلى سيدة القصر دلالة على مدى التمكين الذي سيناله يوسف (ﷺ)، وأنه قد وصل إلى مكان آمن، وأن المحنة قد انتهت بسلام، وأنه مقبل بعد هذا على خير، فاستخدام الفعل (أكرمي) فيه دلالة على العناية والاهتمام، فالكرم هو تخير أغلى ما عند الإنسان، واختيار (المثوى) اختيار مجازي مرسل، أشار إلى المحل، ويريد الحال، ففيه دلالة على الاستقرار والراحة، وكأنه يريد أن يختص بيوسف (ﷺ) لنفسه، وهذا الاختيار للألفاظ يناسب ما في نفسه فالمثوى يشير إلى نهاية الشيء، الذي لا يعقبه حراك، ورحيل، فالمثوى "مكان الثويّ والمبيت والإقامة، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه، ولكن التعبير أعمق؛ لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته، وهي مبالغة في الإكرام. في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام"٦٣.

إن هذا الاهتمام الذي يبديه العزيز بيوسف (ﷺ) قد يثير في نفس امرأته شيئًا؛ لذا كشف لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير، وما يتطلع إليه فيه من أمل، فقال: معللا: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، ومجيء لفظة (عسى) في هذا السياق دون لفظة (لعل) تعكس ما نفس العزيز من طمع صادق في ضم يوسف إليه، وإبقائه في قصره ممكنا أكثر من (لعل)؛ فـ(عسى) تستخدم في مقام مقاربة حصول ما يطمع فيه، سواء أقريبا كان أم بعيدا، بينما (لعل) تستخدم في توقع الحصول، وفرق بينهما أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٥ هـ) "ويستعمل في المتوقع فيه (لعل)، وفي المطموع فيه (عسى)"٦٤.

لعل العزيز رأى في يوسف (ﷺ) من الصفات ما جعله يتمسك به؛ فلخص هذه الأمور في علتين: النفع، واتحاذه ولدا، ولعل الحاجة إلى الولد مقدمة، ولكنه أخرها أو مهد لها؛ مراعاة لنفسية امرأته، واختيار نتخذه تشير إلى اصطفائه يوسف، واختياره ولدا، والتعبير بالولد دون الابن؛ لأن الولد أشمل من حيث الجنس، والعدد، قال أبو الحسن: الولد الابن والابنة والولد هم الأهل والولد"٦٥، فلفظة الولد يقال لكل مولود، ويقال للمتبنى: ولد.

ما جاء من آيات تدل على قبول ما أراده العزيز، ليتحقق ليوسف (ﷺ) تمكينا في قصر العزيز، فالأخوة أراده في الجب، والله أراد أن يعوضه ما فقده من الحب، بالتمكين والاستقرار، يقول الحق: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، افتتح المولى بيانه بعد حوار العزيز وامرأته، بأداة التشبيه (الكاف) والمشبه به اسم الإشارة لاستحضار الصورة، ولبيان الحالة التي آل إليها يوسف (ﷺ)، واستعمل القرآن هنا اسم الإشارة (ذَلِكَ) لبيان بُعْدِ المشار إليه، دلالة على تغير الحالة، فكانت الإشارة إلى التمكين المستفاد من مَكَّنَّا ليوسف (ﷺ) تنويها بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلا أن يشبه بنفسه٦٦.

تلحظ التناغم في تضعيف صوت الكاف ونبر مقطعها؛ لتعطي دلالة القوة والنصرة، وكأنها جاءت تسلية ليوسف عما لَحِقَ به من أذى إخوته، وبيعه في سوق العبيد، فالتمكين من المكنة وهي القدرة، ودخول اللام على يوسف دون تعدية الفعل بنفسه إلى مفعول إشارة إلى التخصيص والحيازة والملك، وقد يكون اللام للتعليل؛ أي: كذلك فُعِل بِهِ مَا فُعِلَ من أجل تمكينه في الأرض، واستخدم القرآن التعبير بالظرفية دون الاستعلاء؛ أي: في الأرض، وليس على أرض للدلالة على ثبات التمكين، ورسوخه في الأرض، وسعته الممتدة وعظمته فليست الأرض قاصرة على قرية أو مدينة، بل المعنى أوسع من ذلك، وقد ويكرمه الله من فضله بعد التمكين بتعليمه تأويل الأحاديث، وكلمة الأحاديث تحمل إشارة إلى اهتمام تلك الأمة بما تراه في منامها، فيوسف حُسِدَ لرؤيا رآها، وخرج من السجن لرؤيا رآها الملك، والفتيان اللذان كان معه في السجن كان لهما نصيب من الرؤيا، وهو ما أوله يوسف (ﷺ) فكان هذا التأويل تأييدا من الله على صدقه، لذا استخدم القرآن لفظة التأويل دون التفسير؛ لأن التفسير قد يصيب فيه صاحبه، وقد يخطئ، لكن التأويل هو ما يؤول إليه الشيء، وهذا ما أراده الله فالفعل ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ مسند إلى ضمير المولى؛ فما يعرض عليه من رؤيا ستولى الله إلهامه الإجابة عنها، وإدخال حرف الجر (من) دلالة على أنه ما تلقاه يوسف من هذا العلم الواسع ما هو إلا غيض من هذا الفيض الإلهي، قال المولى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، وهذا ما صرَّح به يعقوب (ﷺ) في أول الأحداث ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾(سورة يوسف: ٦)، وقال يوسف (ﷺ) في ختام الأحداث ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾(سورة يوسف: ١٠١).

كل هذه الأحداث تحكمها قوة عادلة تُسَيِّرُ الأحداث بعزة وحكمة، فـ﴿اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ فأمر الله غالب على كل أمر، والجملة

الاسمية تشير إلى ثبوت هذا القانون الإلهي العادل، فلم يأت النظم القرآني هنا بالجملة الفعلية؛ أي: لم يقل الحق: (والله يغلب)، ويعطي لفظ الجلالة (اللَّه) معنى الهيبة والعظمة، ويشير (غَالِبٌ) إلى التأثير الحسي بمقطعه المفتوح، المتآزة في إبراز المعنى، وخدمته، فالغين مَجْهورٌ مُسْتَغْلٍ، والباء انفجاري مجهور شديد يجسد معنى العلو والغلبة، كقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾(سورة طه:٢٤)، فـ(طَغَى) يصور المعنى، ويبعثه في خيالك محسوسا مجسماً، وعُدِّي (غَالِبٌ) بـ(عَلَى)؛ لأن "(عَلَى) بعد مادة الغلب، ونحوها، يدخل على الشيء الذي يتوقع فيه النزاع"٦٧.

عقب المولى هذا المشهد بقوله:﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ "استدراكا على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تجهل؛ لأن عليها شواهد من أحوال الحدثين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.

خاتمة العمل

كشفت هذه الدراسة (الفونيمات التركيبية وفوق التركيبية، وإيحاءاتها النفسية سورة يوسف نموذجا) شيئا من خصائص هذه اللغة، وعرضت غيضا من فيض جمالية النص القرآني، وأسرار نظمه، من هذه الخصائص، والأسرار:

- اللغة ظاهرة صوتية، تختلف اختلافا كليا عن سائر الظواهر الأخرى غير اللغوية.
- تقتضي دراسة اللغة دراسة علمية التركيز أولا على أصواتها المولدة عددا كبيرا من الكلمات ذات الدلالة المختلفة.
- تتعاضد الفونيمات التركيبية والفونيمات فوق التركيبية في إبراز المعاني وتجليتها، فتعمل على بيان المراد، وتساعد في توزيع النص الواحد توزيعا تحليليا، وتكشف دلالات المتكلم النفسية.
- إن نظم النص القرآني لا يكتفي بنقل الحدث الكلامي فحسب، بل ينقله بصورة دقيقة بحيث تستوعب ما يقصد إليه المتكلم مع تصوير إحساسه وشعوره أثناء الكلام.
- لكل لفظة في التركيب القرآني معنى لا تؤديه لفظةٌ أخرى؛ فهي تصور ما كان يشعر به المتكلم أثناء كلامه، كـ(إِنَّ) المثقَّلة و(إِنْ) المخفَّفة الدالتين على التوكيد؛ كقول الإخوة مخاطبين يوسف له معتذرين: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، بينما قالوا لأبيهم:﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾؛ لأنهم لما رأوا أباهم وما حلَّ به من جرَّاء فعلتهم من الوهن، واللَّوْعة، وحُرْقة الفؤاد، وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى توكيد الاعتذار، والاعتراف بالخطيئة. بخلاف حالة أخيهم؛ فإن الله أكرمه بعدهم وبوَّأه مكانةً عاليةً ومكَّن له في الأرض، وكأن فعلتَهم تلك عادت عليه بالخير والرِّفعة، بعكس ما جرَّت على أبيهم؛ فهناك فرق بين الحالتين؛ فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

هوامش العمل

١- محمد أحمد أبو الفرج: مقدمة لدراسة فقه اللغة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٦٩م، ص١٣٢ وما بعدها.

٢- يقول العالم الفرنسي كانتينو (Cantineau): "كان الخليل أول من فتح الباب ليلج منه علماء كبار كسيبويه، وابن جني" (جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، تونس، نشر الجامعة التونسية، د . ط، ١٩٦١، ص ١٨).

٣- الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، د. ت، ص ٢١، و أبو عمرو الداني (عثمان بن سعيد): كتاب النقط، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ١، والقلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي طويل، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٨٧، ج ٣ ص ١٥٥.

٤- الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ١٩٨٨م، ج ١ ص ٤٧.

٥- الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٠٦، ج ١ ص ٢٥٣.

٦- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، عالم الكتب، د. ط، ١٩٩٧، ص ١٦٩.

٧- روبنز: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٢٧، ١٩٩٧، ص ٢٩٢.

٨- المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٩- عبد الرحمن حاج صالح: مدخل إلى علم اللسانيات الحديث، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر، ١٩٩٧، العدد ٧، ص ١٠.

١٠- يقول (Daniel Jones): " كل التعريفات التي سمعت بها يمكن مهاجمتها، ولا أظن أنه من الممكن أن أقدم تفسيرا لا يترك منفذا للشذوذ والاستثناء".

(عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، عمَّان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٤، ص ٩٧، نقلا عن: D. Jones، The phoneme، pp١١،١٢.)

١١- مناف مهدي محمد: علم الأصوات اللغوية، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٠٩.

١٢- روبنز: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص ٢٩٣.

١٣- ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط ٩، ٢٠١٠، ص ٥٠، روبنز: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص ٢٩٣، وعبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٦، ١٩٩٣، ص ١١٩، ومناف مهدي: علم الأصوات اللغوية، ص ١١٠.

١٤-يرى دي سوسير الفونيم: " مجموعة التأثيرات السمعية والحركات النطقية للوحدات المسموعة، والوحدات المنطوقة، كل منهما بشرط الآخر" (عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص ١٢٠). وعرف بودوان بالفونيم تعريفا يتناسب ومعطيات مصطلحات علم النفس، فهو يرى أنه" المعادل النفسي للصوت اللغوي" (مناف مهدي: علم الأصوات اللغوية، ص ١٠٩). اعتمدت المدرسة النفسية العقلية الجانب الوظيفي في تعريفها بالفونيم، بأنه الوحدة المناسبة للتعبير الألفبائي، وهذه إشارة إلى أن وظيفة الفونيم الأساس هي "القدرة على التفريق بين المعاني، فالفونيم صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي" (عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص ٩٨) ومَثَّل هذه المدرسة دانيال جونز يقول "الفونيم عائلة من الأصوات المترابطة فيما بينها في الصفات في لغة معينة التي تستعمل بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كلمة من الكلمات في نفس السياق الذي يقع فيه أي عضو آخر من العائلة نفسها " (عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص ١١٩).

١٥- مناف مهدي: علم الأصوات اللغوية، ص ١٠٩.

١٦- ماريو باي: أسس علم اللغة، ص ٥٠.

١٧- المرجع السابق، ص ٨٨.

١٨- عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص ١٠٠.

١٩- حلمي خليل: التفكير الصوتي عند الخليل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٨٨، ص ٧٠.

٢٠- رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة، القاهرة، مطبعة المدني، ط ١، ١٩٨٢، ص ٨٧.

٢١- "سميت بالفونيمات فوق التركيبية (Phonames Supra – Segmental)، أو غير التركيبية (Phonames Non – Segmental)؛ لأنها لا تدخل في جوهر التراكيب اللغوية، بيد أن لها تأثيرات موجهة للبنى الوظيفية" عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص ٢١٣.

٢٢- المرجع السابق، ص ١١٠.

٢٣- أنكر بعض المستشرقين وقوع النبر في العربية، كالمستشرق هنري فليش (Henry Fleish)، وبرجشتراسر (Bargstrasser)، فقد أنكر فليش (Fleish) وجود النبر في العربية، وأن العرب لم يلتفتوا إليه إلا جزئيا في علم الصرف العربي.(هنري فليش: العربية الفصحى، ترجمة عبد الصبور شاهين، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩، ص ١٩)، يقول براجشتراسر:"إن الضغط لم يوجد فيها، أو لم يكد يوجد، وذلك أن اللغة الضاغطة، كصيرا ما يحدث فيها حذف الحركات غير المضغوطة، وتقصيرها، وتضعيفها، ومد الحركات المضغوطة" (براجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٩٧م ، ص ٧٣).

٢٤- عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص ٢١٥.

٢٥- جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، ص ١٩١.

٢٦- عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص ص ٢١٥ – ٢١٦ .

٢٧- جميل بثينة، الديوان، جمع وتحقيق وشرح حسين نصار، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط٢، ١٩٦٧، ص ٧٩.

٢٨- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة، عالم الكتب، ط ٥، ٢٠٠٦، ص ٢٢٨.

٢٩- الرجز لرؤبة في شرح المفصل. ينظر: ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش): شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب، ج ١ ص ١٠٤.

٣٠- ابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق حنا الفاخوري، بيروت، دار الجيل، ط ٢، ١٩٩٧، ج ١ ص ٤٦٧، والبغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي ،وأميل بديع، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط، ١٩٩٨، ج ١٠ ص ٢٥٣.

٣١- يجوز عند بعض أصحاب أبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧ هـ) نصب الجزأين بـ(إن وأخواتها). ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، ج ١ ص ٤٦٧، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد العال سالم، الكويت، دار البحوث العلمية، ط ١، ١٩٨٠، ج ١ ص ٤٩١).

٣٢- سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب، علق عليه إميل بديع يعقوب، بيروت، دار محمد علي بيضون، ط ١، ١٩٩٩، ج ٢ ص ١٤٢.

٣٣- ابن السراج: الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٨٨،ج ١ ص ٢٤٨، والبغدادي: خزانة الأدب، ج ١٠ ص ٢٥٣.

٣٤- الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، ط ١، ١٩٦٨، ج ١ ص ٢٧٩.

٣٥- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، بيروت، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٩، ص ٩.

٣٦- عبد الرحمن الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، ط ١، ١٩٩٦، ج ٢ ص ٤٨٩.

٣٧- ابن أبي الدُّنيا: قرى الضيف، تحقيق عبدالله بن حمد المنصور، الرياض، أضواء السلف، ط ١، ١٩٩٧، ج ٣ ص ٤٨٣، وعبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، حقق هذه الطبعة وعلق عليها سعد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠١، ص ٤٣١.

٣٨- نسب ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) البيت إلى البستي، وري صدر البيت بـ(عَارِضَاهُ) بدلا عن(ناظراه)؛ أي: " عَارِضَاهُ فِيمَا جَنَى عَارِضَاهُ ... أَوَ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي" ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١، ج ١ ص ٣٣٠، وينظر: السجلماسي (أبو محمد القاسم بن محمد): المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق علال الغازي، الرباط، مكتبة المعارف، ط١، ١٩٨٠م، ص ٤٩١.

٣٩- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٣١.

٤٠- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن محمد): مفتاح العلوم، حققه وقدم له وفهرسه عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١١،

ص ٥٤٠.
٤١- نزار قباني، الأعمال الكاملة، إعداد وتقديم ثروت المصري، دار صفا للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩، ص ٣٩٠.
٤٢- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٥، ١٩٧٥، ص ١٧٦.
٤٣- تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط ٢، ١٩٧٤، ص ١٦٤.
٤٤- المرجع السابق، ص ١٦٤.
٤٥- ينظر المسألة عند سيبويه (الكتاب، ج ١ ص ٢٧٩).
٤٦- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني): الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١، ج ٢، ص ١٥٠.
٤٧- ابن جني: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق عبد الحليم النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء الكتب، ط ١، ١٩٩٤م، ج ١ ص ٢٥٩.
٤٨- ابن جني: الخصائص، ج ٢، ص ١٥٠.
٤٩- سيبويه: الكتاب، ج ١ ص ١٤٢.
٥٠- المرجع السابق، ج ٣ ص ١٠٠.
٥١- الزمخشري: الكشاف، ج ٢ ص ٣٦٦.
٥٢- ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر): التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ط ١، ١٩٨٤ هـ ، ج ١٣ ص ٤٢.
٥٣- الزمخشري: الكشاف، ج ٣ ص ٩٢.
٥٤- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٧.
٥٥- الرافعي (مصطفى صادق): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت، دار الكتاب العربية، ط ٨، ٢٠٠٥، ص ١٤٩.
٥٦- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١ ص ١١٠.
٥٧- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٨.
٥٨- الشريف الجرجاني (محمد بن علي): التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٤٢.
٥٩- فضل عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، عَمَّان، دار الفرقان، ط٤، ١٩٩٩، ص ٧١.
٦٠- السمين الحلبي: الدر المصون في عُلوم الكتاب المكنون، تحقيق علي محمد معوض وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣، ج ٤ ص ١٥٣.
٦١- الزمخشري: الكشاف، ج ٢ ص ٣٢٨.
٦٢- المرجع السابق، ج ١٢ ص ٢١٤.
٦٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت، دار الشرق، ط ١٠، ١٩٨٢، ج ٤ ص ٢٩٨.
٦٤- أبو البقاء الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني): الكليات، تحقيق عدنان درويش محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٤٦٩.
٦٥- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد): المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، لبنان، دار المعرفة، د.ط، د. ت، ص ٥٣٢.
٦٦- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٢ ص ٢٤٥.
٦٧- ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٢ ص ٢٤٧.